وصف الطبائع لثيوفراستس

(٤) في الوجه الصفيق

الصفاقة حرفة ظاهرة يتخذها المرء من المزل الفاحش بحيث يأتي في اعماله الامور الشائنة ويتجاوز مع الغير حدود اللياقة والحشمة . مثال ذلك الرجل الذي يرى امرأة ذات مقام في الهيئة الاجتماعية مقبلةً فيبدو منهُ امامها ما يخلُّ بالحشمة . او هو الذي يصفق في الملاعب العمومية ويصفر للممثلين والناس سكوت يشاهدون ويسمعون او يتلقى على ظهرهِ فيسمع الحضور من اصوات تجشؤهِ ما يضطرهم الى تحويل انظارهم عن التمثيل . وهو الذي يشتري من السوق الرطب والتمر ويأكلهُ على مشهد من الناس ويتحدث وهو واقف مع الفاكهاني وينادي المارة باسمائهم وهو لا يكاد يعرف احداً منهم ويستوقف في الطريق بعض السائرين الى اعمالهم . واذا رأى احد المحامين دنا منهُ وحدَّثهُ هازئاً بالدعوى التي دافع فيها امام القضاة . وهو الذي يشتري اللحوم بنفسهِ واذا صادف في طريقهِ احد المارة اراهُ الاشياء التي اشتراها ودعاهُ الى الطعام ضاحكاً ويقف امام حلاق او عطار فيعلن انهُ سيولم وليمة يعاقر فيها بنت الكروم ولا يشتهي منها الاَّ سورة الخمر قد لعبت في رأسهِ . واذا باع الخمر يوماً مزجها بالماء لاصحابهِ ولغيرهم على السواء . واذا ناط بهِ القوم قضاء مهمة في سفرٍ حفظ لديهِ قيمة النفقة التي قبضها من ذوي الشأن واقترض قيمة اخرى من رفاقهِ . واذا وصل مع الوفد الى الناحية المقصودة وقدَّم لم اهلها بعض الهدايا طلب نصيبهُ منها كي يبيعهُ ويتنفع بثمنهِ . ثم هو يأبى على خدَّامهِ الفلس الذي يتقطونهُ من الطريق ولا يخجل من طلب اقتسامهِ معهم . والانكى من هذا انهُ يوزِّع الزاد على خدَّامهِ بكيل مجوَّف القعر ومستطيل على شكل هرم حتى اذا طفح انقص منهُ بقدر الاستطاعة وكذلك اذا اوفى ديناً عليهِ فانهُ يؤدِّيهِ ناقصاً ويتنفع بالفرق . واذا اولم وليمة جمعت كثيراً من المدعوين امر خدَّام المائدة بعد انصراف المدعوين بجمع بقايا الاطعمة وتقديم حساب عنها اذ يسوءهُ ان يترك لم بقية صنف لم يؤكل كلهُ

في الاوقات غير المناسبة

الاقتراب من الناس او مخاطبتهم في اوقات غير مناسبة امر مزعج . فالمزعج او المقلق هو الذي يأتيك فيعدُّك في شؤونهِ بينما تكون مشتغلاً بشؤونك ويسأل زيداً من الناس ان

يكفله في الامر الفلاني بينما يكون محكوماً عليهِ بتأدية كفالةٍ عن بعضهم . ويذهب الى النزهة مع جماعةٍ وصلت من سفر طويل وهي محتاجة الى الراحة . وينتصب في الجمعيات فيعيد الكلام الذي سبقهُ غيرهُ اليهِ وعلمهُ الحاضرون اكثر منهُ . واذا ادب احد مأدبة ذهب اليهِ وطلب قسماً من لحوم الذبائح[1] واذا رأى سيداً يعاقب عبدهُ على ذنب اقترفهُ قال لهُ : اني فقدت احد اقاربي في حال مثل هذا ذلك اني جلدتهُ فمات من الحياة واتعر . واذا حُكم في مسألة بين خصمين يطلبان الصلح زاد المسألة تعقيداً وحاول الايقاع بين الخصمين

المبالغة في الاكرام

ليست مبالغة المرء في الاهتمام بالغير سوى تكلف باطل يقصد بهِ ابداء مظاهر اللطف والاكرام بالقول او الفعل مثال ذلك رجل يكلف نفسهُ من الاعمال فوق طاقتها فيقدم على شيء لا يسعهُ الخروج منهُ محفوظ الكرامة . او هو الذي يُحضر الى المائدة مقداراً من الخمر يتجاوز كفاية المدعوين . ويدخل في مشاجرة بين اثنين فيزيد نارها اشتعالاً . ويعرض نفسهُ كدليل على ابناء السبيل وهو جاهل للطريق ومنافذها . واذا كان جندياً محارباً سأل قائد فرقتهِ عن اليوم الذي يُعدّ فيهِ جنودهُ للقتال وعما اذا كان لديهِ اوامر يلقيها اليهِ للغد . واذا دخل على مريضٍ نهاهُ الطبيب عن الخمر اوعز الى اهل البيت ان يسقوهُ شيئاً منها على سبيل التجربة لعلها تأتي بالفائدة المطلوبة ثم يساعد العليل على شربها . واذا نعيت اليهِ امرأة في المدينة تصدّى لخبر اسمها واسم زوجها ووالديها و بلدها على التبرع بيان اصلها وفصلها ثم الثناء عليهم اجمعين بهذه العبارة «كانوا كلهم اهل فضلٍ وفضيلة» . واذا الجأهُ حكم الاضطرار يوماً الى حلف اليمين في دعوى امام القضاة حضر وقال باعلى صوتهِ «ليست هذه باول مرةٍ اخترق فيها صفوف الحاضرين لتأدية اليمين»

في العبادة

ثقلٌ في العقل يلازم الاقوال والافعال . فالغبيّ هو الذي اذا عد الدراهم امام الناس مشى وثلاث يسألهم بعد ذلك عن مقدار تلك الدراهم . واذا دُعي الى المحكمة في دعوى اقيمت عليهِ ذهب الى البرّية في اليوم المعين ناسياً ما عليهِ . وهو يتام في الملاعب العمومية ولا يفيق الاّ بعد نهاية اللعب وانفراط عقد الجمهور . واذا تمشى أكل بشراهةٍ فيعتريهِ عسر هضم فيخرج من دارهِ ليلاً يتمشى في الطريق لتخفيف وطأة الألم عنهُ فيلاقيهِ كلب الجيران

(١) كانت العادة عند الاغريق اذ قربوا القرابين ان يعشوا مع اصحابهم او يعشوا اليهم بشيء من الذبيحة وعليهِ لم يكن ثمت داعٍ لطلب تلك الحصة قبل الاوان اذ ربما جعلت الوليمة ذلك الطالب بين المدعوين

فينهشهُ . ويفتش عن الشيء الذي وضعهُ في مكان فلا يجدهُ . واذا نُعي اليهِ احد اصحابهِ حزن وبكى وأنَّ واشتكى . وبينما العقلاء يقرضون دراهمهم امام شهود عدول عملاً بالقاعدة المتبعة تراهُ بعكس القاعدة ويسترد اموالهُ من مديونيهِ امام اولئك الشهود[1] . ويتقضّ على خادمهِ بالشتم واللعن في ايام الزمهرير لانهُ لم يشترِ لهُ الفاكهة التي طلبها . واذا سمح لاولادهِ يوماً بالمصارعة او السباق في احد الملاعب فلا يأذن لهم في الكف عنها حتى يسيل منهم العرق او تنقطع حبال انفاسهم . وهو الذي يذهب بنفسهِ لجمع البقول من الحقول فيملّحها ويطبخها ثم يعيد تمليحها ناسياً ما عملهُ اولاً فيأتي الطعام مالحاً لا يصلح للاكل . وهو الذي اذا امطرت السماء مدراراً والناس في اشد الاستياء من الغيث المنهمل يشكون ويتذمرون لا يخشى ان يقول جهاراً « ما احسن هذا المطر واعذبهُ »

في الغلاظة

الغلاظة نوع من الشدة في اللهجة او العنف في التعبير بل هي توحش يبدو في حركاتنا ويتطرّق الى اقوالنا . فالرجل المتوحش هو الذي اذا سألتهُ عن احد الناس اجابك بهذه اللهجة « لا تقلقني » واذا حييتهُ لا يتنازل فيردُّ التحية . واذا شاء ان يبيع شيئاً لهُ فلا يجوز لك ان تسألهُ عن الثمن واذا فعلتَ فلا يلتفت الى سؤالك بل يجيبك تيهاً وعجباً : « ماذا ترى في هذه البضاعة » وهو يهزأ بتقوى الذين يبعثون بقرابينهم الى المعابد والمياكل ايام الاحتفالات المعظيمة قائلاً : « اذا استجاب الآلهة صلواتهم ونالوا منهم ظلباتهم فقد دفعوا قيمتها ولم تأتهم من السماء » . ثم الويل لمن يدفعهُ عن غير عمدٍ بكتفهِ او يطأ قدمهُ وهو سائر في الطريق فان ذنبهُ لديهِ لا يُغتفر . واذا طلب اليهِ صديق ان يقرضهُ مبلغاً من النقود اسمعهُ كلاماً جارحاً وحمّلهُ من المنّة شيئاً كثيراً . واذا عثرت رجلهُ بحجر استشاط غضباً وانقض عليهِ باللعنات . ومثلهُ لا يتنازل ويتنظر احداً في مكان معيّن . وتراهُ يتفرّد دائماً بالاشياء الغريبة او بعبارة اخرى يحب الخروج عن المعتاد بين الناس فلا يغني بين جماعةٍ اذا جاء دورهُ ولا ينشد شعراً في وليمة ولا يرقص مع القوم في مأدبة[2] وفوق ذلك كلهِ فانك قلما تراهُ في المعابد والمياكل حاملاً للآلهة النذور والقرابين

سليم عوّاد

---

(١) كان استشهاد الشهود شائعاً جداً عند اليونان في جميع المعاملات

(٢) كانت العادة عند اليونان ان ينشدوا في الولائم بعض الابيات من شعر شعرائهم ويرقصوا معاً بعد الفراغ من المائدة